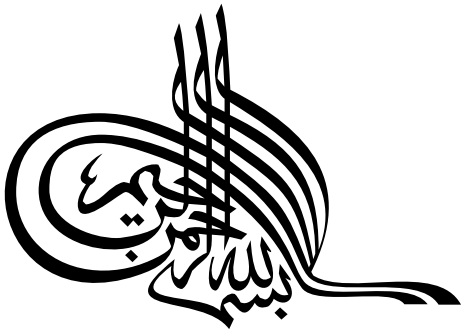
بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

الحمد لله ربِّ العالمين، هدانا بفضله إلىٰ صراطه المستقيم، وأضاء بصائرنا بكتابه المبين، والصَّلاة والسَّلام علىٰ صفوة الخلق أجمعين -محمد بن عبد الله ﷺ- مخرج البشريَّة من ظلمات الجهل إلىٰ نور اليقين، أفصح من نطق بالعربيَّة وخاطب بها، وعلىٰ آله الكرام الأخيار وتابعيهم بإحسان إلىٰ يوم الدين.

أما بعد،

فقد تعدَّدت القراءات القرآنية وتنوَّعت، ومثَّل الخلاف بين الحركات القصيرة وجهًا من وجوه تعدُّدها وتنوُّعها، فأصبح حقلا خصبًا للدَّارسين الباحثين عن سرِّ ذلك وتأثيره في الدِّراسات اللغوية فأنجب ذلك ما يسمىٰ بقضيَّة «الإبدال اللغوي».

والإبدال اللغوي -كما هو معروف- ليس خاصًّا بالحركات القصيرة فقط، بل هي إحدىٰ فروعه واتجاهاته؛ لأنه يتناول الأصوات اللغوية بفرعيها معًا -الصوامت والحركات- فهو عند اللغويين: «جعل حرف مكان آخر، أو حركة مكان أخرىٰ»[1].

والحركات العربية القصيرة لها دورها الفاعل في الكلمة العربية؛ وذلك لما تنتجه من اختلاف في المعاني أو تنويع في المباني، فهي «بما تمتاز به من

(1) اللهجات العربية د. إبراهيم محمد نجا ص71 - مطبعة السعادة 1396هـ-1976م.
وينظر: الاشتقاق. عبد الله أمين ص333 - مكتبة الخانجي بالقاهرة - الطبعة الثانية 1420هـ-2000م، والتطور اللغوي التاريخي د. إبراهيم السامرائي ص110- دار الأندلس - الطبعة الثالثة 1983م، واللهجات العربية نشأة وتطورًا د. عبد الغفار حامد هلال ص120، مكتبة وهبة - الطبعة الثانية - 1414هـ-1993م، وقضايا ونظرات في فقه العربية، د. إبراهيم محمد أبو سكين ص50 - الطبعة الثانية - 1996م/ 1997م.

خصائص فسيولوجية وفيزيائية وإدراكية هي روح الكلام التي تمنحه الحيوية والنشاط، وهي وسيلة طيعة في يد المتكلِّم لكي يلون كلامه كيفما يشاء ووفق مقتضيات الموقف الكلامي»[1].

وانطلاقًا من تلك الأهمية القصوىٰ للحركات القصيرة في اللغة العربية آثرت أن يكون الحديث عنها من خلال أعظم نصٍّ مقدَّس عرفته البشريَّة وهو القرآن الكريم بقراءاته الكثيرة والمتنوِّعة، والتي لا شكَّ أنه «مع كثرة هذا الاختلاف وتنوُّعه لم يتطرق إليه تضادٌّ ولا تناقض ولا تخالف، بل كله يصدق بعضه بعضًا، ويبين بعضه بعضًا، ويشهد بعضه لبعض علىٰ نمط واحد، وأسلوب واحد، وما ذاك إلا آية بالغة، وبرهان قاطع علىٰ صدق من جاء به ﷺ»[2].

ولا شك أن رواية هذه القراءات -الصحيح منها والشاذ- هي أوثق الروايات علىٰ الإطلاق؛ لأنه لم يحظ كتاب بمثل ما حظي به القرآن الكريم من العناية والرعاية بدءًا من نزوله وإلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها تصديقًا لقوله ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: 9].

ومن ثم فهي تمثل مصدرًا هامًّا من مصادر دراسة العربية الفصحىٰ بمستوياتها اللغوية المختلفة -صوتية وصرفية ونحوية ودلالية-، حيث يقول السيوطي: «أما القرآن فكما ورد أنه قرئ به جاز الاحتجاج به في العربية سواء كان متواترًا أم أحادًا، أم شاذًّا، وقد أطبق الناس علىٰ الاحتجاج بالقراءات الشاذة في العربية، إذا لم تخالف قياسًا معروفًا، بل ولو خالفته يحتج بها، في مثل ذلك الحرف بعينه، ولا يقاس عليه نحو استحوذ ويأبىٰ»[3].

وإن بدا للمتخصصين في مجال القراءات القرآنيَّة أن مدار الاختلاف فيها يدور في الراجح حول سبعة أوجه فبلا شك فإن مدار الاختلاف بين الحركات

(1) علم الصوتيات د. عبد الله ربيع، د. عبد العزيز علام ص159، 160 - المكتبة التوفيقية.

(2) النشر في القراءات العشر لابن الجزري 1/ 52 - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.

(3) الاقتراح في علم أصول النحو للسيوطي. تحقيق د. أحمد محمد قاسم ص48 - حدائق حلوان بالقاهرة - 1396هـ-1976م.

القصيرة يأتي في مقدمة هذه الأوجه؛ وذلك لكثرة التبادل بينها في النُّطق عند مَنْ نزل القرآن بلغتهم.

وحتىٰ يكون موضوع البحث واضح الملامح والسِّمات فقد ركز الباحث علىٰ تلك القضية كظاهرة لهجية من خلال كتاب يعد من أهم الموسوعات التي قامت بتسجيل القراءات القرآنيَّة بشقيها -المتواتر والشاذ-، أو ما تسمىٰ بالقراءات الأربعة عشر، حيث جمع فيه مؤلِّفه بين فني التصنيف والتوجيه، فأصبح مؤلَّفًا طريفًا في بابه، رائدًا في مجاله، حتىٰ غدا من أهم المصادر التي يستعين بها الباحثون والدارسون في هذا المجال.

وقد عنونت لهذا البحث بـ «الإبدال بين الحركات القصيرة في إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر للبنا الدمياطي. دراسة لهجية».

والحركات القصيرة توزن بميزان الخفَّة والثِّقل فتمثُّل الفتحة جانب التخفيف باعتبارها من أصوات اللين المتسعة، بخلاف الكسرة والضمة فيمثلان جانب الثِّقل باعتبارهما من أصوات اللين الضَّيِّقة[1].

لهذا نجد الفتح من مميزات القبائل الحجازية بعامَّة، وربما كان الكسر طابعًا تتسم به غالبًا بعض القبائل البدويَّة التي لا توغل في بداوتها؛ لقربها من الحضر، أو اتصالها به، خلافًا للضمِّ الذي تتسم به القبائل الموغلة في البداوة.

ولعل من نافلة القول أن نقول: إنه ليس معنىٰ هذا أن كل قبيل من هؤلاء يلتزم حركة بعينها في كلامه، فهو أمر لا تستقيم معه لغة من اللغات، ولا لهجة من اللهجات، فالمراد طبعًا هو أنه إذا اجتمع في الكلمة الواحدة ثلاث لغات، وجدنا أن الأمر يسير غالبًا علىٰ النَّحو الذي ذكرنا[2].

(1) ينظر: الأصوات اللغوية د. إبراهيم أنيس ص41 - دار الأنجلو المصرية - الطبعة الخامسة 1979م.

(2) من لغات العرب لغة هذيل د. عبد الجواد الطيب ص30 د. ت.

وينظر: في اللهجات العربية د. إبراهيم أنيس ص98 - مطبعة الأنجلو المصرية - الطبعة السادسة 1984م.

ولكن هل هذا الأمر يمثل حقيقة ثابتة في ميدان البحث العلمي؟

هذا السؤال هو ما يتكفل هذا البحث بالرَّدِّ عليه، خاصَّة أن مؤلِّف كتاب «إتحاف فضلاء البشر» قد سمح لي بالإجابة عن هذا السؤال؛ وذلك لأنه كثيرًا ما يعرض لصور الإبدال بأنها لغات دون نسبة لها اللهم إلا نادرًا.

وفي هذا تصريح من المؤلِّف بأن الإبدال يأتي نتيجة لاختلاف اللهجات، كما هو رأي جمهور العلماء.

واللهجة في الاصطلاح العلمي الحديث:

هي مجموعة من الصفات اللغويَّة تنتمي إلىٰ بيئة خاصة ويشترك في هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة ... وقد كان القدماء من علماء العربية يعبرون عما نسميه الآن باللهجة بكلمة «اللغة» حينًا[1]. وهذا التعبير هو ما سار عليه المؤلِّف في كتابه والباحث في بحثه.

وقد اتَّجه المؤلِّف في عرض صور الإبدال بين الحركات القصيرة في كتابه عن طريق الدِّراسة اللهجية إما عن طريق النصِّ علىٰ أنها لغة من اللغات، وهو ما أكَّدته المصادر العربيَّة الأخرىٰ، أو من قبيل اللغات مع احتمال اختلاف الدَّلالة دون ترجيح لأحدهما علىٰ الآخر.

هذا بالإضافة إلىٰ عرضه بعض صور الإبدال علىٰ أنها من قبيل اللغات دون التصريح برأي آخر، مع احتمال النصِّ الوارد فيه اللفظة لاختلاف الدَّلالة.

وقد اجتهدت في ذكر الأدلة التي ترجِّح أن الصورتين الأخيرتين من قبيل اللغات لمعنىٰ واحد حتىٰ تدخلا في دائرة الإبدال وإلا كانت خارج حدوده كما هو معروف من أن الاتفاق في المعنىٰ هو القانون الرئيس لتحقيق هذه القضية.

ومن هنا اقتضت طبيعة الدِّراسة في هذا البحث أن أعرض له من خلال تمهيد وثلاثة مباحث ثم خاتمة.

---

(1) في اللهجات العربية د. إبراهيم أنيس ص16.

فالتمهيد عن: المؤلِّف والمؤلَّف.

المبحث الأول: اتِّفاق الدَّلالة.

المبحث الثاني: المؤلِّف بين اتِّفاق الدَّلالة واختلافها.

المبحث الثالث: النَّصُّ بين اتِّفاق الدَّلالة واختلافها.

مع عرض صور الإبدال بين الحركات الثلاث (الفتح والكسر والضم) الخاصة بكل مبحث علىٰ حدة.

وفي الخاتمة: ذكرت أهم نتائج البحث.

ويتم هذا العرض من خلال كتابة الأمثلة أولا، ثم بيان موضعها في القرآن الكريم ثانيًا، ثم نصِّ المؤلِّف ثالثًا، مع كتابة الجزء ورقم الصفحة في الكتاب موضوع البحث، وأخيرًا التعليق عليه مع نسبة اللغات ما استطعت إلىٰ ذلك سبيلا.

وبعد، فهذا جهد المقلِّ إن يكن فيه من صواب فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والفضل لله أولا وآخرًا، وإن يكن غير ذلك فحسبي أني اجتهدت.

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: 286].

وعلىٰ الله قصد السبيل، فهو نعم المولىٰ ونعم النَّصير، راجيًا منه التَّوفيق والسَّداد، إنه علىٰ ما يشاء قدير وبالإجابة جدير.

تمهيد

المؤلِّف والمؤلَّف

(أ) المؤلِّف

هو أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الغني الدمياطي الشافعي شهاب الدين الشهير بالبناء، خاتمة من قام بأعباء الطريقة النقشبنديَّة بالدِّيار المصريَّة، ورئيس من قصد لرواية الأحاديث النبويَّة.

ولد بدمياط ونشأ بها، وحفظ القرآن وجوده، وتعلَّم القراءات وبرع فيها، وقرأ مباديء العلوم علىٰ مشايخ دمياط، ولما أراد المزيد ارتحل إلىٰ القاهرة فلازم الشيخ سلطان المزاحي والنور الشبراملسي فأخذ عنهما القراءات وتفقَّه عليهما، وسمع منهما الحديث، وعلىٰ النُّور الأجهوري، والشمس الشوبري، والشهاب القليوبي، والشمس البابلي، والبرهان الميموني وجماعة آخرين، واشتغل بالفنون الأخرىٰ من عربية وقراءات وأصول وتاريخ وسيرة فبرع في كل ذلك، ووصل إلىٰ ما لم يصل إليه نظراؤه من علماء عصره، وبلغ من الدِّقَّة والتَّحقيق غاية قل أن يدركها أحد من أمثاله.

ثم ارتحل إلىٰ الحجاز وهناك استزاد من الحديث عن البرهان الكوراني، وذهب إلىٰ اليمن فاجتمع بسيدي أحمد بن عجيل ببيت الفقيه، وتلقن منه الذِّكر علىٰ طريق النقشبنديَّة، وحل عليه إكسير نظره، ولم يزل ملازمًا لخدمته إلىٰ أن بلغ مبلغ الكمال من الرِّجال، فأجازه وأمره بالرجوع إلىٰ بلده والتصدِّي للتَّسليك وتلقين الذِّكر، فرجع وأقام مرابطًا بقرية قريبة من البحر المالح تسمىٰ بعزبة البرج، واشتغل بالتَّصنيف والتَّأليف، ثم رغب في الانقطاع لعبادة الله وسلوك طريق الصوفيَّة،

وقصد للزِّيارة والتَّبرك، والأخذ والرواية، وعم النفع به لا سيما في الطريقة النقشبنديَّة، وكثرت تلامذته، وظهرت بركته عليهم إلىٰ أن صاروا أئمة يقتدي بهم ويتبرك برؤيتهم.

وأما عن مصَنَّفاته فهي كما ذكرت كتب التراجم تنحصر فيما يلي:

1- إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر.

2- مختصر السِّيرة الحلبيَّة في مجلد.

3- كتاب في أشراط السَّاعة سماه «الذَّخائر المهمات فيما يجب الإيمان به من المسموعات».

4- حاشية علىٰ شرح جلال الدِّين المحلي علىٰ الورقات لإمام الحرمين في أصول الفقه.

5- السِّر المفيز في اسمه تعالىٰ عزيز.

6- نخبة الرسائل وبلغة الوسائل في شروح الحروف والأسماء.

وأما عن سنده في القراءات فهو يتصل بالإمام ابن الجزري -رحمه الله تعالىٰ- كما يظهر ذلك في مقدِّمة كتابه فيقول: «قرأت القرآن العظيم، من أوله إلىٰ آخره بالقراءات العشر، بمضمون «طيبة النشر» المذكور، بعد حفظها علىٰ علامة العصر والأوان، الذي لم يسمع بنظيره ما تقدم من الدُّهور والأزمان «أبي الضياء النور علي الشبراملسي» بمصر المحروسة.

وقرأ شيخنا المذكور علىٰ شيخ القراء بزمانه، الشيخ «عبد الرحمن اليمني».

وقرأ اليمني علىٰ والده الشيخ «شحاذة اليمني» وعلىٰ «الشهاب أحمد بن عبد الحق السُّنباطي».

وقرأ السُّنباطي علىٰ الشيخ «شحاذة المذكور».

وقرأ الشيخ «شحاذة» علىٰ الشيخ «أبي النصر الطَّبلاوي».

وقرأ الطَّبلاوي علىٰ شيخ الإسلام «زكريا الأنصاري».

وقرأ شيخ الإسلام علىٰ الشَّيخين: «البرهان القلقيلي» و«الرضوان أبي النعيم العقبي».

وقرأ كل منهما علىٰ إمام القراء والمحدثين، محرر الروايات والطرق، أبي الخير «محمد بن محمد بن محمد بن علي بن يوسف الجزري «بأسانيده المذكورة في نشره»[1].

ولم يزل هذا العالم الجليل في إقبال علىٰ الله تعالىٰ وازدياد من الخير إلىٰ أن ارتحل إلىٰ الديار الحجازية فحج ورجع إلىٰ المدينة المنورة فظل مقيمًا بها حتىٰ أدركته المنية بعد الحجِّ بثلاثة أيام في المحرم سنة سبع عشرة ومائة وألف، ودفن بالبقيع مساء -رحمه الله تعالىٰ-[2].

(1) إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر للبنا الدمياطي. د. شعبان محمد إسماعيل. مقدمة المحقق 1/ 79، 80 - عالم الكتب - مكتبة الكليات الأزهرية - الطبعة الأولىٰ 1407هـ-1987م. وينظر: النشر 1/ 98: 194.

(2) ينظر: هدية العارفين. أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون للبغدادي 5/ 167، 168 - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان 1413هـ-1992م، وإيضاح المكنون في الذيل علىٰ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون للبغدادي 1/ 540 - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان 1413هـ-1992م، وتاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار المعروف بتاريخ الجبرتي 1/ 103، 104 - منشورات محمد علي بيضون - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - الطبعة الأولىٰ 1417هـ-1997م، والأعلام للزركلي 1/ 240 - دار العلم للملايين - بيروت - لبنان - الطبعة الثالثة عشرة 1998م، ومعجم المؤلفين. عمر رضا كحالة 2/ 71- دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان - 1376هـ-1957م، ومعجم المطبوعات العربية والمعرَّبة. يوسف إلياس سركيس 1/ 885 - دار صادر- بيروت - مطبعة سركيس بمصر - 1346هـ-1928م، والفتح المبين في طبقات الأصوليين. تأليف. عبد الله مصطفىٰ المراغي 3/ 120- المكتبة الأزهرية للتراث =1419هـ-1999م، وأصول الفقه تاريخه ورجاله د. شعبان محمد إسماعيل ص542 - المكتبة المكية مكة المكرمة - طبعة دار السلام - الطبعة الثانية 1419هـ-1998م.

(ب) المؤلَّف:

هو كتاب «إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر» ويسمىٰ أيضًا «منتهىٰ الأماني والمسرَّات في علوم القراءات».

شرع الدمياطي في تأليفه لما رحل إلىٰ المدينة المنورة سنة 1082هـ بطلب جماعة من فضلائها، أبان فيه عن سعة علمه وزيادة اقتداره.

وهو كتاب جامع لعلوم القراءات كلها في مؤلَّف واحد، وهو عمل جليل، وجهد عظيم تبع فيه المؤلِّف طريقة الإمام شهاب الدين القسطلاني المتوفىٰ سنة 917هـ في كتابه «لطائف الإشارات لفنون القراءات» إلا أنه تدارك عليه كثيرًا من الأشياء التي لم تصح، فوضح وجه الصواب فيها، مع الدِّقَّة في العزو والأمانة في النَّقل، هذا مع اهتمامه بالتَّوجيه والتَّفسير، وكذا العناية بالأحكام الفقهية.

وقد أشار محقق الكتاب إلىٰ المبادئ العامة التي التزم بها المؤلِّف في كتابه ومنها:

أ) عرَّف القراءات، وذكر أقسامها المختلفة، ثم عرَّف علماء القراءات الأربعة عشر، ورواتهم وطرقهم، وسبب نسبة القراءات إلىٰ هؤلاء الأئمة بالذات.

ب) عقد فصلا خاصًّا للحديث عن الرَّسم العثماني وضوابطه ومواضع الحذف والإثبات، والزِّيادة، والوصل والفصل، وكل ما يتعلق بقواعد الرَّسم العثماني.

ج) بيان أصول القراءات، وتوجيهها من حيث اللغة العربية، وإسناد كل قاعدة من هذه القواعد إلىٰ قائليها، والدِّفاع عن الطعون التي وردت علىٰ بعض هذه القواعد، بالأدلة والأسانيد التي لا تقبل الجدال، ثم أعقب ذلك بالفرش، وهو ما يخصُّ كلُّ سورة من سور القرآن الكريم علىٰ حدة[1].

(1) ولمزيد من هذه المبادئ. ينظر: إتحاف فضلاء البشر 1/ 53، 54.